

متى ينتهي العبث بالعراق ؟ مدونة سيكولوجية

الدكتور اسعد الامارة
استاذ جامعي وباحث سيكولوجي

التفجيرات والاحزمة الناسفة والسيارات المفخخة بالعراق جهد بلا أجر ، وأجر بلا جزاء ولا شكورا وهذا ما قال عنه العرب (فاخرة لا دنيا ولاآخرة !!) هذا العبث الذي يبرد ويسخن ، يغلي ويتجمد ، ألا يحق لنا ان نشكك بكل هذه العملية " ديناميكية التفجيرات " مع من فهم العملية وابصر فيها في عيون البوم التي ترى في الظلام اكثر منه في وضح النهار. نحن لا نبخس فعل المقاومة اذا كانت هناك مقاومة حقيقية ، وزال مبرر فعلها بعد انسحاب القوات الامريكية من المدن والقصبات العراقية وتحاول الحكومة العراقية قدر ما تستطيع تحجيم دور هذه القوات ان استطاعت .

لا اعتقد ان العراقيين تعودوا على سلوك العنف رغم انهم امضوا فيه خبرة ممتازة زادت على 29 عاما متواصلة ولكن معلوماتنا السيكولوجية تدلنا ان النفس الانسانية تطلب الراحة بعد سنوات العمل الشاق من القتال ولا بد للسلاح ان يركن وان المقاتل يرغب بأن يستريح وان المجاهد ايا كان انتماؤه تعب واصابه الملل والوهن طيلة كل تلك السنوات . تقول المقولة النفسية الشهيرة ان الانسان يتعلم العنف والسلوك العدوانى ولم يُجبل عليه فهو غير موروث لدى جميع البشر ولكن البيئة هي التي تخلقه وتنمي فيه روح العدوان .

ان العبث بالعراق وبشعبه بدأ ياخذ صورة المشكلة الشائكة من حيث إنها مصدر لانفعلات شديدة متراكمة في نفوس اهل العراق تارة وتارة اخرى في نفوس من يريد بأهل العراق عدم الراحة والاستقرار اما لاسباب سياسية محضة او لاسباب اقتصادية صرفة او لاعتقاد البعض ان مذهب ما تبوا سدة الحكم بعد سقوط النظام السابق بطريقة دراماتيكية غير متوقعة.

ان العبث بالعراق واهله من جماعات ترى نفسها صاحبة الحق في الحكم او ادارة الدولة بات أمر غير واقعي لان الانتخابات افرزت الصالح وابعدت الطالح وللزمن القول الاكيد في ذلك ، اما الاجندة الخارجية التي تظهر الشفقة على اهل العراق فنحن نعلم أننا معشر المشتغلين بعلوم النفس أن الشفقة قد تكون رد فعل لما تنطوي عليه الانظمة واجندتها من قسوة ، وان سلوكهم الرحيم لم يكن إلا انتصارا على نزعاتهم الى القسوة والعنف ضد شعب العراق واطفاله ونساءه وتمزيق جميع ابنيته الاجتماعية والقيمية ، ولكننا قد نرى انه لا بأس عليهم فيما يصدر عنهم إذا كانت الرحمة رائدهم وانه خير لجميع العراقيين ان يقبلوا الرحمة من يبيت لهم العنف والتدمير ولو بالاعلام فقط لان رحمتهم احسن من ان يكونوا عاطلين عن القسوة والرحمة معا في السر والعلن .

ان العبث في العراق يأخذ عدة مناحي غير العنف المباشر ، بل العبث بالامن من خلال تنشيط العصابات المنظمة والعبث بالشباب بنشر المخدرات بين صفوفهم والعبث بتغريب الفقراء وشراء بناتهم وبيعها في دول الجوار بابخس الاثمان فضلا عن آفة الفساد الاداري ، السرطان الذي ينخر بكل مؤسسات الدولة العراقية ومفاصلها . ان العبث في العراق ناجم عن عدوان دفين لم يجد منصرفا له في السياسة القائمة على قبول الوضع الراهن في العراق وبدلا من ان يميل الى الفتك في الانظمة ذاتها التي تصدر العنف للعراق ، قامت بابعاده وتصديره الى الاضعف وهو العراق في الوقت الحاضر وهي نفس الفكرة السيكولوجية التي ترى ان النفس التي لا تجد منصرفا لشحناتها الزائدة تترد هذه الشحنات الى داخلها فتكون هي كبش الفداء ، فبدلا من ان تكون هي وشعبها كبش الفداء حولت هذه الشحنات الى العراق وهو الاضعف اليوم فاصبح كبشا للفداء.

ان العبث بالعراق واستمراره وتصدير العنف اليه انما هو نقل واستبدال هدف بهدف واذا حيل بينه وبين الافراغ او عدم نقله الى العراق فإنه لا يلبث أن يرتد نحو شعوب الانظمة التي تصدر العنف للعراق فتفتك الشعوب بانظمتها بنفسها فاصبح الطريق الاسهل هو تصدير العبث للعراق لكي تحمي هذه الانظمة نفسها ولو لفترة قصيرة.

ان الحقائق النفسية تدلنا على ان الصراع لا ينتهي إلا بقبول وجوده وليس بفناء الاخر وان الشئ لا يوجد إلا مع ضده فنحن نعرف كما يعرف قارئنا الكريم ان الصراع ايا كان نوعه ليس سلبيا فقط وربما يكون دافع كما هو القلق عند الانسان حينما يكون قلقا دافعا فالصراع ايضا أمر لا بد من وجوده فمثلا الصراع الطبقي لا ينتهي بالغاء الاخر اي ان الطبقة التي وقع عليها الحيف يجب ان لا تنتقم من الطبقة التي استغلته لعقود او قرون وكذلك الدول التي استعمرت بلدانا عدة ثم اقامت معها علاقات دبلوماسية ، فالصراع بين الدول كما هو الصراع بين الافراد وهو عينه الصراع في النفس الانسانية حيث انها تعيش لحظات مريرة بسبب فكرة ولدت احباطا وهذا الاحباط ولد صراعا وهذا الصراع سبب ازمة نفسية فردية او جمعية او حتى بين الشعوب او الدول . فالصراع كما تدلنا ادبيات علم النفس والطب النفسي يولد الالم ، والالم النفسي يسبب المرض ويصبح الالم تعبير عن مرض ولذا كان وما زال الطب النفسي والعلاج النفسي الحقيقي يتمثل في القدرة على قبول الالم كوسيلة لانتهائه وهو مفهوم ربما ينافي المفهوم التقليدي الذي عرف بانه محاولة القضاء على الالم اي نفيه ، وبذلك فإن انتهاء الصراع ليس بنفيه وانما بقبوله فمهما كانت المسكنات التي تستخدم في مجال الطب بانواعه او الطب النفسي هي نفسها تستخدم في علاج مشكلات العبث بالعراق اذا ما سلمنا جدلا ان العراق يعاني من الالام سببها الصراع وادت الى العبث بكل قيمه وعاداته وحتى لهجته القوية بالشدة وتحولها الى لهجة بها الكثير والجديد من المفردات التي ربما سنتناولها بعرض سيكولوجي ومدى انعكاسها على حالة شعب بأكمله .

خلاصة القول ان العبث بالعراق "الذي ينشأ الصراع" لا ينتهي إلا بقبوله وفي ذلك نتفق مع المقولة النفسية التي ترى .. لا توجد لذة إلا في مقابل الألم ولكن الجديد هو القدرة على التغلب على الألم بقبول الألم ذاته اسوة بقبول السعي وراء اللذة والتغلب على الألم ، فمن يريد العبث بالعراق عليه ان يعي ان الاساليب اختلفت وان الادوات تبدلت وعليهم ان يتعلموا ان نقل العدوان كما تفصح عنه الانظمة يمكن ان يأخذ اشكالا من الممارسات الانسانية لتصبح شكلا مألوفا ببدائل رمزية يفترض انها تكون اقل خطرا واكثر قبولا خصوصا اذا ما امكن ضبط العدوان والسيطرة عليه وإذا ما رافقه حسن التوجيه مع الترويض بأن بقاء الوضع الجديد في العراق امر لا بد منه ولعلنا نرجوا ان يتمكن من يريد العبث بالعراق واهله من استعادة السيطرة بعد إفلات .

elemara_32@hotmail.com